

الثقافة المصرية

وكيف تستفيد من ثقافة الجاحظ

الأدبية والعلمية والسيكولوجية

للاستاذ مصطفى عبد اللطيف المحامى

دعونا فى مقال نشر بالسياسة الاسبوعية الى الرجوع الى الثقافة العربية بدوية كانت أم حضرية ، وأهنا بالمتقنين ثقافة عالية أن يصرفوا جهودهم الى بعث تلك الثقافة ، وتغذية ثقافتنا المصرية بمادة مفيدة صالحة ، وذكرنا فى ذلك المقال أسماء بعض زعماء الثقافة العربية . ومن بينهم أبو عثمان بن بحر الجاحظ أحد أعلام العصر العباسى ومن أكبر زعماء الفكر الإسلامى .

وهانحن أولاء نعود الى هذه الدعوة ، وتأيد تلك الفكرة ، بذكر شىء من ثقافة الجاحظ الواسعة ، تلك الثقافة التى يباهى بها العرب ويعجب لوفرتها الجيل الحاضر ، لأنها ثقافة تزيد فى الوفرة على ثقافة جوت الألمانى ، وديدرو الفرنسى ، ودستوفسكى الروسى ، وغيرهم من ذوى الثقافات الواسعة الرفيعة .

والحق أنى بعد أن تصفحت جهرة من مؤلفات الجاحظ وما كتب عنها ، لم أجد وصفا أصدق عليها من أنها كالبحر اللجب الزاخر ، تحوى الجوهر كما تحوى الصدف ، فأنت اذا تناولت تلك المؤلفات ألفت بحوثا شائعة فى الأدب ، وملاحظات قيمة فى العلم ، ومعلومات رائعة فى سيكولوجية الإنسان والحيوان ، وأفكارا كالأمواج متزاخرة متلاحمة تشرق عليها أنوار الثقافات الفارسية واليونانية والهندية .

هى ثقافة ثرة متعددة النواحي يتطلب تصويرها كتباً مفردة ، ولكنى سأحاول أن أتناول فى اختصار ثلاث شعب منها ، وهى ثقافة الجاحظ : الأدبية ، والعلمية ، والسيكولوجية . واكتفى برسم خطوط لتلك الثقافات تاركا أخراج صورة كاملة لها لمن هم أقدر منى عليها ، وغايى من المقال كما سبق أظهار روائع الثقافة العربية ، وبيان صلاحيتها لتغذية ثقافتنا المصرية ، أذ فيها خير مادة لنا وخير ثقافة .

ثقافة الجاحظ الادبية

ونحن اذا قلبنا البصر فيما صدر عن الجاحظ من المؤلفات

الأدبية الفصيحة الكثيرة ، أدركنا قطعاً نفع تلك المؤلفات لثقافتنا ، وصلاحيتها لتغذية ألهاماتنا . ويحتاج بحث هذه المؤلفات الى كتاب مفصل . ولكنى سأقصر بحثى على وصف رسالة الجاحظ الموسومة « بالترييع والتدوير » وهذه الرسالة اعتقد أنها تكفى لرسم صورة تامة عن أدب الجاحظ وأسلوبه الرصين الموثق ، ومعانيه البليغة ، وميله الى خلط الجد بالهزل فى كتاباته . وهذه الرسالة مدبجة فى احمد بن عبد الوهاب من معاصرى الجاحظ ومن ذوى النفوذ والمقربين لدى الخلفاء ، وهى تمثل فى أوضح بيان جمال الرصف ، والقدرة على ملكية العبارة . ومن المستحسن أن أصف هذه الرسالة وآتى بفقر منها : ابتداء الجاحظ الرسالة بالقدح فى احمد والزراية بعقله ، وطرح عليه مائة سؤال منها الخفيف ومنها الثقيل ، ومنها الجدى ومنها المضحك ، حتى اذا ما آذاه وجرحه جرحاً يكاد يقطر دماً ، وأدرك فداحة ماضع ، أسرع الى قلبه فمسحه من الدم ودهنه بالمرهم ليأسو الجرح ، ويدوى ما بضع سنان القلم ، فأخذ يقدم وجه العذر ، ويدى اليراع بالمغفرة ، ويزكى صفات احمد ويطنب فى مدحه ويسرف ، فها هو ذا يسم احمد فى مفتتح الرسالة بالادعاء وينعته بالجهل يقول . — « كان احمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ، ويدعى أنه مفرط الطول ، وكان جعد الأطراف قصير الأصابع ، وهو يدعى السباطة والرشاقة ، وكان كبير السن متقدم الميلاد ، وهو يدعى أنه معتدل الشباب حديث الميلاد . وكان ادعاؤه لأصناف العلم على قدر جهله بها ، وتكلفه للإبانة عنها على قدر غباوته فيها وكان قليل السماع غمرا يعد أسماء الكتب ولا يفهم معانيها ، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق فيهم بسبب » .

واستطرد يقول بعد كلام طويل فصيح : — « فلما طال اضطبارنا حتى بلغ المجهود منا ، وكدنا نعتاد مذهبه ونألف سبيله ، رأيت أن أكشف قناعه ، وأبدى صفحته للحاضر والبادى ، وسكان كل ثغر وكل مصر بأن أسأله عن مائة مسألة أهزأ به فيها وأعرف الناس مقدار جهله » .

وأخذ يلقي عليه الأسئلة فى خلال الرسالة ومنها قوله : — « خبرنى ما تقول فى الفراسة ؟ وما تقول فى أسرار الكف ؟ وما تقول فى النظر فى الأكثاف ! وخبرنى متى تستغنى الحية عن الغذاء ! ومتى ينتفع الضب بالنسيم ! وخبرنى ما السحر وما الطلسم وما الدنesh ! وما قولهم فى اللبان الذكر ! ؟ » .

وبعد أن سقاه سخرأ وأشبعه تهكاً وجعله ضحكة الضاحكين

والسخاء، وحب الوطن؛ ومدح فيه انفعال الغيرة وذمه في صفحات معدودة، وهذا الكتاب لا تظهر فيه شخصية الجاحظ الخلاقة لأن مادته منقولة عن الأعراب. وعلى العموم فقولفات الجاحظ الأدبية يحملتها تفق اللسان، وتقوى العارضة، وتمدنا بثروة واسعة من التعابير الجميلة، وتعطر أفتدتنا وتنعش صدورنا بمعانيها اللطيفة الفريدة. يقول المسعودي في هذا الصدد: «كتب الجاحظ تجلو صدأ الأذهان وتكشف واضح البرهان... ويقول ابن العميد: «كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً، والأدب ثانياً...»

ثقافة الجاحظ العلمية

ويعني ابن العميد بهذا القول أن يقول أن كتب الجاحظ تعلم العلم أكثر من أنها تعلم الأدب، والواقع أن كتب الجاحظ الأدبية لا العلمية تتضمن ملاحظات بارعة، وأشارات دقيقة، ومعلومات قيمة، يمكن أن تبني عليها بحوث علمية رائعة. حدثني أحد المهتمين بالثقافة العربية أنه قرأ رسالة التفاح للجاحظ في مكتبة بألمانيا، فوجد بها ملاحظات وتجارب للجاحظ مدهشة منها أن الجاحظ كان يكتب بمادة كيميائية بعض الأسماء على التفاحة قبل نضجها. فقطهر الأسماء على التفاحة بعد النضج، وكأنها خلقت على هذه الصورة، وكأن الأسماء نقشت على التفاحة نقشاً طبيعياً، وذكر أن الجاحظ أبان في هذه الرسالة كيف تتلون التفاحة في الطبيعة: فالقمر يخلع عليها اللون الأصفر، والشمس تهبها اللون الأحمر. وهذه الحقائق لأعلم مبلغ صدقها. ولكني أثبتتها بقصد الأثارة للبحث عن هذه الرسالة ونشرها. ولا شك في أن رسائل الأدب لا تخلو من معلومات مفيدة للعلم، فإنا بالرسائل والكتب العلمية مثل كتب النبات - والمعادن - والكيمياء - والطب - وغيرها التي لم نطلع عليها وأأسفاه إلى الآن، والتي أفاد منها الغربيون واستقوا آراءهم، فقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية أن كازويني - وداميري اعتمداً في بحوثهما العلمية على كتاب الحيوان والنبات للجاحظ، ونحن وإن كنا قد عثرنا في مطالعاتنا على طائفة من حقائقه العلمية، فإن هذه الحقائق تعتبر نقطة من محيط. وشعاعة من شمس، قد يهدف ذكرها في هذا الموضع إلى سوء التقدير، وغباوة الحكم، ولهذا فأني اكتفى هنا بتوضيح مذهبه في البحث، وطبعة العلم، وحب التحقيق والتدقيق، فها هو ذا يقدم لأحد كتبه في الحيوان بالنعوذ بالله من أن يدعو شغفه بآتمام كتب الحيوان إلى أن يصل الصدق بالكذب، أو يدخل الباطل في تضاعيف الحق. أو يتكثر بقول الزور، أو يتلمس تقوية ضعفه

وهزأة الساخرين، انبرى يشدو بذكره ويتغنى بمدحه، مما يجعلنا نعجب من الجاحظ ومن تناقضه الظاهر، ومن انقطاع الملازمة المنطقية بين هجوه الفارط المفرط، ومدحه اللاحق المفرط. استمع إليه يقول في مدح أحمد: «وهل على ظهر الأرض جميل حبيب، أو عالم أديب إلا وظلك أكبر من شخصه، وظنك أكثر من علمه، واسمك أفضل من معناه، وحملك أثبت من نجواه. وصمتك أفضل من فخواه!... ثم تأخذه الأنفة وتغويه العزة، فيتسامى على أحمد بالمعرفة ويتفاضل بالحكمة يقول: - فأنت والله يا أخى تعلم علم الاضطرار وعلم الاختيار وعلم الأخبار أني أشد منك عقلاً، وأظهر منك حزماً، وألطف كيذاً، وأكثر علماً، وأوزن حلماً، وأخف روحاً، وأكرم عيناً... وأنت رجل تشدو من العلم، وتنفق من الأخبار وتموه نفسك، وتعز من قدرك، وتتهيا بالثياب وتنبل بالمرأى... وأخيراً يحس الجاحظ شدة ما سافه من الذم إليه فيعمد إلى تلطيفه ببيان الساحر الجذاب فيقول: - «فإن أنت عاقبتني، فقد رغبت عن النبل والبهاء، وعن السؤدد والسناء، وصرت كمن يشفى غيظاً أو يداوى حقداً أو يظهر القدرة أو يحب أن يذكر بالصولة.

ويشفع هذا بكلام يتنفس الملق والدهان يقول: - «وأنى لك بالعقاب وأنت خير كلك، ومن أين اعتراك المنع، وأنت أنهجت الجود لأهله؟ وهل عندك إلا ما في طبعك؟ وكيف لك بخلاف عادتك؟»

وأكتفى بهذا الاقتباس الطويل، الذي تعمدت اطالته لاثارة القارىء لتلاوة هذه الرسالة برمتها، ليتذوق جمالها الفني وحلاوة عباراتها وعذوبة ماثها، وهذه الرسالة عندى لا تمثل الجمال الفني للعبارة، بل أنها تمثل جمال المعنى وبلاغته.

وللجاحظ رسائل أخر شائقة متقدمة في الفصاحة متناهية في الرصانة والسلاسة والجزالة، وهى آية قائمة على تفوق الرجل في أدب المقال واحسانه فيه أقصى الاحسان. والمجال يطول بذكر شيء عن هذه الرسائل ونسرد أسماء بعضها ليدرك القارىء كيف تنبه الجاحظ منذ قرون لمعالجة موضوعات تهز العواطف والمشاعر والانفعالات. فرسالة البخلاء تحوى قصصاً غريبة عن بخلاء عصره وعاداتهم، ورسالة الحاسد والمحسود تهجن الحاسد وتذم انفعال الحسد. ورسالة «العشق والنساء» تصف عاطفة العشق وكيف يخضع لها الجبارة وكيف خضع لها الحجاج الطاغية. وكتابه «المحاسن والأضداد» تناول فيه ذكر محاسن كثيرة من العواطف الفردية مثل عواطف الصدق، والعفو، والمودة، والوفاء، والشجاعة،

باللفظ الحسن، وستر قبجه بالتأليف المونق، وهذه الأقوال لا تصدر إلا من رجل وهب ضميرا عليا يزعه عن الأوهام، وبزهره عن ذكر المغالط، ويدعوه الى التثبت من العلة، وتنقية الثقة من الريبة، وتطهير الحجة من الشبهة.

وأنا لنراه في كتبه ومؤلفاته يستند كثيرا الى التجربة، ويعتمد على الملاحظة، فإذا ما أعوزته التجربة، ولم تيسر له الملاحظة، رجع الى ثقة من الثقات للذاكرة والمناقشة، فأذا لم يجد الثقة الذي يعتمد عليه ويتذاكر اليه. ربأ به ضميره عن نقل المعارف نقلا مهما كان مصدرها. فها هو ذا في كتب الحيوان تناول ذكر كثير من الحيوان والطير والحشرات، ورجع الى ما كتب أرسطو في الحيوان، وأخذ عنه بعض ماحققة بنفسه أو قامت التجربة على صدقه، ورفض أن يثبت في كتبه معلومات غريبة عنه، فنراه مثلام يكتب شيئا عن «السماك» مع أن أرسطو أفاض وأشبع القول في هذا الموضوع؛ ولكن الجاحظ أبى أن ينقل عن أرسطو شيئا في هذا البحث؛ وعلّة ذلك أنه لم تتوفر له الملاحظة عن السمك وعن طباعه وأحواله، وأنه سأل البحرّيين عن بعض الحقائق الواردة في كتب أرسطو فلم يصل منهم على قول محقق؛ لهذا ترك هذا الباب كلية، ولم يكتب فيه حرفا.

وأنا لنتمنى أن نجد مثقفا مصرية أو شرقيا يخصص نفسه؛ وينفق عمره، في التنقيب عن كتب الجاحظ العلمية في مظان وجودها ومحال مكانها. وينقلها لنا ليخدم بذلك الثقافة المصرية. لأن البحوث التي لدينا عن الجاحظ كلها موجزة مجملة؛ وكلها تركت الناحية العلمية جانبا. فالسندوبى قصر بحثه الواسع على - أدب الجاحظ - وترك علمه. واستقى مادته من جهرة صالحة من الكتب الأدبية، والاستاذ خليل بك مردم كتب بحثا مجملا مفيدا عن الجاحظ وثقافته. والاستاذ أحمد أمين كتب فصلا بديعا موجزا عن الجاحظ، ومس الناحية العلمية مسأخيفا. وليس من شك في أننا في حاجة الى من يدرس الجاحظ درسا واسعا من جميع نواحيه. واليوم الذي نجد هذا الرجل هو اليوم الذي تقع فيه على ثقافة متمعة. ونواح طريقة للتفكير العربي.

ثقافة الجاحظ السيكلوجية

ومن النواحي الطريقة لثقافة الجاحظ الناحية النفسية أو السيكلوجية. وهذه الناحية ماثلة بجلاء في طائفة من كتبه. وهي أشد ما تكون جلاء في كتب الحيوان السبعة. فقد تناول في هذه الكتب نفسيات الحيوان والطير والحشرات، وتحدث عن

أخلاقها وطباعها وعاداتها، وضمنها معلومات عجابا وملاحظات دقاقا تشهد بسعة ثقافة الجاحظ، وبأنه أنفق عمرا طويلا في معايشة الطير ومؤالفة الحيوان، ومراقبة الحشرات، وأنه هام من أجل ذلك في الغياض وتوغل في بطون الأودية، وركب البحار، وسكن الصحارى، ونبض قلبه مع النبات. واهتز اسحر الطبيعة: ففى كلامه عن الحيوان تحدث عن نبالة الكلب، وذكر أنه يتخير أنبل موضع في المجلس، وتحدث عن القط وذكر أنه لئيم خؤون وشره شديد الشراهة. وفي الوقت نفسه يؤثر أولاده بالاكل على نفسه!

وتكلم عن الديك وأثاره الدجاج على نفسه في سن الشباب؛ فإذا هرم صار أنانيا لا يعرف الا نفسه. وتكلم عن الفيل وجرأة قلبه، وقوة عزمه، بينما هو يفزع من القط فزعاً شديداً! وتكلم عن اليربوع وسعة حيلتها، وأنها علمت الفرس والروم الاحتيال، واتخاذ المطامير على تدبير بيوتها. وأفاض في ذكر عداوة الحيوان بعضه لبعض، فالأسد عدو للكلب يشتهى لحمه، والذئب يشتهى لحم الثعلب، والثعلب يصيد القنفذ وهكذا. وفي الفصول التي عقدها عن الطير أفاض في ذكر الحمام والعصافير. فذكر أن العصافير لا تقيم في الدار اذا خرج أهلها منها وأنها شديدة العطف والبر بأولادها، وتحتل الاخطار في سبيل الدرد عنها. وتحدث عن الحمام فذكر حبه للناس، وأنس الناس به، وأنه لا يهجر الدار اذا هجرها أهلها وأنه لا يغير... وفي الفصول التي عقدها عن الحشرات تكلم عن النحل وكال غريزته، وعن خلق الخلية وما فيها من غرائب الحكم وعجائب التدبير، وكيف يتضافر النحل في عمل الخلية. فنه ما يقوم بجمع المادة من الشجر والزهر. ومنه ما يبنى البيت، ومنه ما يقوم لعمل الشمع. وتكلم عن العنكبوت وبداعة نسجه. وطريقته الحكيمة في صنع مصيدة من خيوطه لا يقع الذباب وصيده. وتكلم عن عداوة القنفذ للحية، والحية للعصافير، والعصافير للجراد، والجراد لفراخ الزناير، والزناير للنحل، والنحل للذباب، والذباب للبعوض، وغير هذا من أجناس هذه المعلومات وأشباهاها مما وعته صفحات كتب الحيوان. وقد ذكرنا وشلا منها، ولا ريب أن المشتغلين بعلم النفس يجدون في هذه الكتب معلومات قيمة مفيدة. وبالأخص المهتمون بعلم النفس التجريبي الحديث الذي تدور بحوثه على درس الحيوان والحشرات. فجدير بنا أن نهم بهذه الكتب التي سبقنا الغريون الى تعرف خطرها وقدرها ونباهاها.

الخلاصة

ونخلص مما تقدم الى أن الجاحظ كان رجلا مثقفا بكل معنى